خطرات ريفية

بقلم

حسن مصطفى

المطبعة العصرية – القدس

٥٩٤

❖ خطرات ريفية

مقدمة

بقلم : الدكتور اسحق موسى الحسيني

إذا كانت المؤلفات تقوم بأوراقها فهذا كتيب، وإذا كانت تقوم بمادتها فهذا كتاب جليل الشأن.
لا أذكر أني قرأت كتاباً في العربية في الدفاع عن الريف، وان صح هذا القول بعمومه فيكون هذا الكتاب فتحاً جديداً في التأليف.. "
لقد كان المألوف أن يقطع القروي صلته بقريته بعد أن ينال من العلم طرفاً، ويندمج في المدينة حتى ينسى أعقابه، أو يتناسوا فضل تلك التربة المباركة عليهم وعلى آبائهم من قبلهم، وقد يمعن بعضهم ويتبرأ من الانتساب إلى القرية، كأن المدينة من صنع الله، والقرية من صنع الشيطان..
على هذا درج أكثر الناس في فلسطين، وفي غيرها من الأقطار العربية المجاورة، إلى أن بعثت القرية كاتباً ملهماً، ذا إحساس عميق ببيئته، وفهم دقيق لروحها، وحب صادق لكل من فيها من نبات وحيوان وإنسان..
لقد كفّر هذا الكتاب عن سيئات أجيال كثيرة مدبرة، وأغلى كرامة أجيال كثيرة مقبلة..
وليست الموضوعات وحدها من وحي القرية، فالمعاني والأسلوب وروح التهكم كلها من آثار البيئة.
ولا يحسبن القارئ أن الكاتب قصد بإيجازه التخفيف عنه، فإنه قصد التثقيل كل التثقيل.
وسيشعر القارئ فوراً أن المعاني مزحومة بصدر الكاتب ، وأنه لا يخرج منها إلا ما يرى إخراجه، وهذا من أثر البيئة القروية التي لا تقول كل شيء.. ولكنها تقول شيئاً يغني عن كل شيء، وهذا هو الإيحاء بعينه.
وهو ضرب من التأديب، أو إن شئت الأدب، عزيز المنال.
وما أشبه هذه الحروف التي نثرها الكاتب فوق صفحات الكتاب الحب الذي يبذره القروي في الأرض.
فإنها إن وجدت تربة خصبة أتت أضعاف أمثالها.
ها قد بذر القروي حبه، فأعدوا مناجلكم أيها الناس واحصدوا أطيب الحصاد.

1) ألهوية :

يعجبني في حياة القرية الاحتكاك المباشر بالطبيعة.. حيث يتم التجاوب والتفاعل بين الطبيعة والإنسان، وحيث يستوحي القروي من هذا التجاوب بعضاً من مثله العليا.
ولعل أولى ظواهر تلك الصلة بين الإنسان والطبيعة هي إثبات الإنسان (هويته) بالنسبة للأرض التي يلتصق بها... فقد يكفي في عرف القانون أن تلتصق الصورة الفوتغرافية على ورقة محاطة بإطار كرتوني وموقعة من معرف ما لإثبات (هوية) شخص ما . ولكن (الهوية) في عرف القروي تكاد تكون أعمق في معناها، وأبعد في مدلولها من تلك (الهوية) العابرة.. هذا عدا كونها أصعب منالاً، وأثقل تبعية، يتجلى ذلك في الفرق بين مدلول الهويتين، فالأولى تدل على (هوية) الاسم وبعض الأوصاف، والثانية تدل على (الهوية) الاستيطان وإثبات الوجود على سطح الأرض ضمن نطاق معين محدود، فإثبات (الهوية) عند القروي يحمل معنى إثبات شخصه لا صورته، على بقعة أرض معينة لا قطعة كرتون.. ويكون التعرف بشخصه وبأرضه بقيمة ما يحدثه من أثر في تلك البقعة التي تحتضنه.. ومن هنا جاز القول: " من لا أرض له لا هوية له " .
والصلة بالطبيعة لا تعرف الهوادة، فقوانينها تسري عليها، وعلى من يتصل عمله بها سرياناً لا يرحم، وكأن الأرض تمثل الطبيعة حين تدعو صاحبها أن يثبت (هويته) بالفعل؛ لينسجم مع قوانينها العامة. فالأرض تتطلب بموجب هذا القانون حرثاً لا رجاء، ومن العبث أن تقنع الأرض بأية وسيلة من وسائل الإغراء البشري بأن تحرث بغير يد ومحراث ومجهود، وان تم فلا بد من بذار، وان تم ذلك فلا بد من ماء، وإن تم هذا وذاك فلا بد من العوامل الطبيعية تتعاون منسجمة لتؤدي إلى النتائج المتوقعة من نمو ونضوج وحصاد واستثمار. وليتصور القارئ الكريم مدى انعكاس هذا النظام المنسجم على نفسية القروي، ومدى أثره في الحكم على أنظمة البشر بموجبه..؛ فنتيجة لهذا الانعكاس يتحسس القروي بالغريزة أي خلل في النظام عندما يرى الأمور تجري في غير مجراها الطبيعي.
فإن قيل له إن الغيمة أمطرت على أرض زيد وقفزت عن أرض عمرو لا يصدق، وان قيل له :" هذا لأن زيداً يصلي وعمراً لا يصلي " لا يصدق أيضاً..؛ لأنه يستغرب ويستنكر القول، بأن الطبيعة حابت زيداً من الناس وحرمت عمرا...
أيتها الطبيعة.. نعمت العدالة المطلقة متمثلة في انسجام قوانينك العادلة يسعد من يتمشى وفقها، ويشقى من يعاكسها.

ومن الطبيعي أن ينفر من تعود القوانين الطبيعية من أي خلل يقع، ومن هنا قوي تعشق القروي للعدل مثلاً أعلى يستوحيه من عدل الطبيعة.. فهو إن رأى في مجتمعه البشري خللاً راح يتلمس إصلاحه عند من يرجو فيه العدالة والقوة مدفوعاً بغريزته ، بأنه لن يعدم في النهاية مرجعاً يطمئن إليه.. فإن أحس ظلماً من جماعته التجأ لشيخه، فإن لم ينصفه هذا، التجأ لشيخ المشايخ، فإن لم ينصفه الآخر لم ييأس، فالشيخ كبير ولكن المتصرف أكبر.. وإن لم ينصفه المتصرف فالسلطان أكبر، وإن لم ينصفه السلطان، يحس في أعماق قلبه بأن لا مناص من الرجوع إلى خالق الكون العظيم وهو يقول:
" السلطان كبير ولكن الله أكبر ".

2) هكذا قال الراعي ..

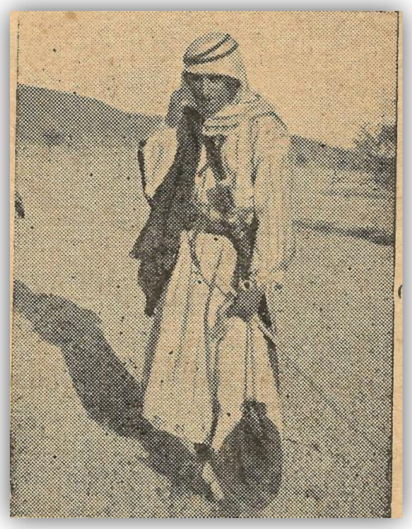

في يوم من الأيام، وقد سئمت صخب الحياة وضجيجها في المدن، خطر ببالي أن أعود لقريتي ماشياً، وبينما أنا في الطريق لحقت براعٍ يسوق غنمه يدب على عصاه، وقد أعياه تعب نهار طويل.
طرحت السلام، فرد التحية ، وحاولت أن اجتازه فبادرني بقوله:
"على مهلك يا عم، لا تجفل الغنم.."
أثار انتباهي شدة حرص الراعي على غنمه، فتباطأت في السير، ولما كنت على مقربة من القرية خطر ببالي أن اقطع ما تبقى من الطريق معه.

- كيف الربيع هذا العام يا أخ، وهل تجد فيه غنمك مرتعاً خصباً؟
- إن المرعى شحيح هذا العام يا عم.. ولكن العبرة بالراعي، فهو إن وجد وحرص ساق غنمه ولو بعيداً للمراعي الطيبة، وتعهدها بعناية تعود على نفسها وعلى أصحابها بالخير الجزيل، وإن أهملها هزلت وضعفت وجفت خيراتها.

قال الراعي هذا الكلام ،وتناول حجراً رمى به قرب شاة حادت عن الطريق فلحقت بأخواتها، وانتظمت في القطيع، ثم أدار وجهه إلي مصغياً فقلت:

- ولكني يا أخ أرى في رعيك الغنم أجمل وقت يقضى في التنقل في جو فسيح طلق، تنفس هواءه وتنعم بشمسه وفيئه.

ولكن الراعي قاطعني والتفت إلي بعد أن تنهد طويلاً:

- "لا يرى الناس في رعي الغنم إلا ما يسر أبصارهم، ويطرب آذانهم ، بمختلف القصص عن الرعاة، ولكن الرعاة يا عم يقولون عن عملهم هذا إنه " في الشتاء غريق وفي الصيف حريق " .. يغبطنا الناس على صعود الجبال ،والتنقل في الأجواء الفسيحة الطلقة، وهذا كله مشاع للجميع، وهذه (نايي) يا عم جففت ريقي من كثرة ما أرسلته من الألحان؛ لأسري بها عن نفسي وأؤنس بها غنمي، ولولا هذه الناي لاستثقلنا صعود الجبال والتنقل في الأجواء الفسيحة الطلقة."

استغربت من الراعي شدة تقديره (للمسؤولية) في رعي الغنم، وقد بدت على وجهه علائم الجد والاهتمام عندما قلت له:

- "كنت أظن أن رعي الغنم أهون مما تصوره لي ، وأظنك تهول من اهتمامك الزائد وتقديرك للرعي، أرى الرعاة يسرحون ويمرحون ولا أنكر ما يلاقونه من تعب في بعض الأحايين."

فقاطعني الراعي لفوره قائلاً:

- "مهلاً يا عم .." ثم تنهد قليلاً، واستمر يقول:
- "أرعى غنمي من ثلاث: أرعاها من اعتداء الناس والحيوان عليها، فهي تقتضي انتباهي، ويقظتي ليلاً ونهاراً، ويعلم الله كم عانيت وعاني غيري من أمثالي من جراء حرصنا وحمايتنا لما نرعى.

- قال الراعي هذا القول والتفت إلي يتفرس في وجهي ليرى وقع ما رواه في نفسي، فشاركته في شعوره بحراجة الموقف وبادرته بقولي:
- لقد قلت لي أنك ترعى غنمك من ثلاث، ترعاها من الاعتداء عليها، ولم أكد أتم حتى قال:
- وأرعاها يا عم من اعتدائها على الناس، يورد الراعي غنمه بمختلف الموارد ويسوقها في الطرقات والأراضي، ولكم حرصت أشد الحرص أن لا أدعها تخرب في أرض الناس أو تتلف شيئاً من مزروعاتهم. ولعلك عالم بما جره إتلاف الأغنام لزرع الناس من مشاكل جلبت النكد والإحراج لصاحب الغنم أو راعيها. ولا يعلم إلا الله مقدار العناء الذي نتكبده لمنع قطعاننا من أن تحدث لأحد خراباً أو لصاحبها إحراجاً.

أشرفنا على القرية، وانتبه الراعي لقربه منها، فتركني لحظة أشغل نفسه بها في جمع الغنم حتى انسابت في الطريق، وعاد يسير بجانبي قائلاً:

- ها قد أشرفنا على الوصول وأظنني قد أخرتك يا عم فإن شئت تسهل.

فقلت له على الفور:

- والله لقد كان حديثك معي مؤنساً مفيداً، وتركتك تقول إنك ترعى غنمك من ثلاث، ترعاها من اعتداء الناس عليها وترعاها من اعتدائها على الناس ولعلك قائل الثالثة قبل أن نصل القرية..

وقف الراعي هنيهة، والتفت نحو الغنم، ورفع رأسه للسماء، وعاد والتفت إلي وقال بصوت هادئ رزين:

- وأرعاها يا عم أخيراً من اعتدائي عليها، نعم من اعتدائي عليها، فلكم أحاطني أناس وأغروني أن أذبح شاة أو أبيعها عن غير علم صاحبها لقاء منفعة. وكم حاولوا إقناعي بحجج خالوها قوية مؤثرة، كقولهم :"هذه قطعان فاستغلها إذ لا رقيب عليها إلا أنت، ولا مسؤول عنها إلا أنت، ألا تراها مستسلمة إليك ؟ ".

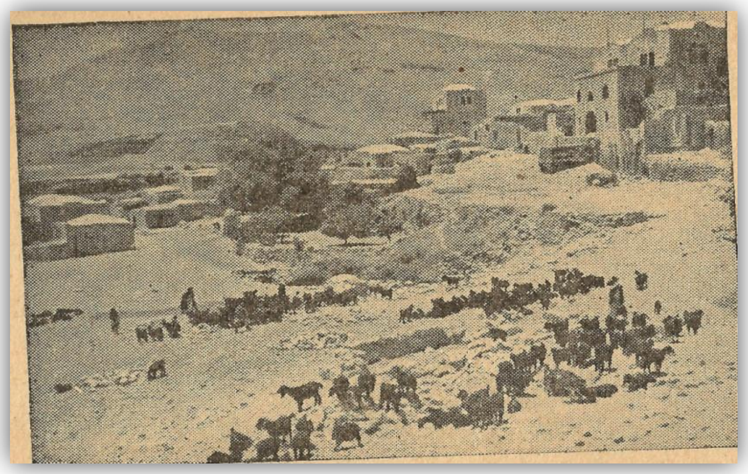

فكنت أرمي بكل هذا الهراء جانباً.. ولكم سولت لي نفسي يا عم أن أحلب شاة أغمس بحليبها رغيفي الجاف في الخلاء، ولكن لم أطعها في هذا..

عند ذلك وصلنا البلدة ، فودعت الراعي وانصرفت، وحديثه يجول في ذهني، ولقد ملكني الإعجاب بهذا الراعي وحديثه الذي ينم على عظمة يسترها ثوب راع بسيط.

ودعته وقد جال في خاطري ذلك الحديث الشريف: " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ".

3) أدب الفتوة في أغانينا الشعبية

" وللناس فيما يعشقون مذاهب " ..
هكذا يجري المثل السائر، وليفسره القارئ الكريم كما يشاء، فهو يجري معه بليونة وسهولة يسيرتين.. إن شاء قال: " وللناس فيما يأكلون مذاهب " ، وإن شاء: " وللناس فيما يشربون مذاهب "، ويجوز له القول: " وللناس فيما يذهبون مذاهب " ... ويحلو القول أيضاً: " وللناس فيما يسمعون مذاهب "..
وعلى أساس ترديد هذه البديهيات ، وأقول إني من عشاق الغناء الشعبي، بل أذهب إلى أبعد من هذا وأصارح القارئ بأني كثيراً ما أصغي إلى السينفوني والرومبا والموسيقى الكلاسيك وغيرها من مختلف الأنماط الموسيقية ، فأطرب لبعضها بعض الطرب، وتمر بعض ألحانها على أذني مراً، وأعجب أحياناً، أهز رأسي استحساناً، وعلى غير فهم؛ لئلا أرمى بقلة الذوق وتبلد الشعور،ولكن مهما يكن الأمر فإني أستطيع الجزم بأن ما أسمعه ليس من انعكاس البيئة، ولا هو الضرب على الوتر المطلوب، فيكون تذوق هذا اللون من الغناء والموسيقى بقدر التأثر بالبيئة التي أنجبته وابتدعته..

أيها القارئ الكريم !

يلذ قول " آخ " عندما يجرح الإنسان، ويحلو الأنين عند الشعور بصداع أو بألم، ويلذ " التمتق " عند جفاف الريق، فالتنفيس الطبيعي من أثر الدوافع الطبيعية هو: الأدب الصادق، وما عداه فهو لغو.. وهذا الأدب الصادق هو من أهم مميزات الأغاني الشعبية بصورة عامة.
ومما يميز أغانينا الشعبية تلك النزعة القوية التي تجمع بين الحب والنخوة، وهما أهم عناصر الفتوة، زينة العمر شبابه، وزينة الشباب فتوته..
اسمع الراعي يقول وقد اعتلى ظهر الجبل معتزاً بفتوته:

يمّا مويل الهوى   يما مويلــيّا
ضرب الخناجر   ولا حكم النذل فيّا

مويل تصغير موال للتحبب – والهوى أنعمنا الله بلفحة منه وهو مقصور الألف (يعني لفحة هوى لا هواء).
فكأن الراعي يقول: أماه " أنشودة الحب أنشودتي "، ولكن حبه لا يوحي له بيا لوعتي ويا شقاي ويا ضنا حالي..بل هوى يوحي بعزة النفس حين يقول:
ضرب الخناجر ولا حكم النذل فيا..
وما أروع عزة النفس من وحي الهوى ! واسمع راعينا مرة أخرى يقول :

لاطلع عراس الجبل   واشرف على الوادي
وقول يا مرحبا   نسم هوى بلادي

حنين صادق يدل على الوفاء والأريحية، وهكذا تعكس الأغاني ألواناً من المشاعر النبيلة.
اسمع الطفل يهزج !

يا رب تكبر مهرتي   تكبر وأنا خيالها

أمنية عزيزة جميلة تصور نفس طفل تصبو للفروسية، والفروسية خلق ورياضة وهي أسمى مراتب الفتوة.
أو ما سمعت:

زحلة عروسة مزينة   ومزينة برجالها

وأية زينة أجمل وأجل من الرجولة، فالعروس جمال، والرجولة جلال، والاثنتان معاً جمال وجلال...

4) في الساحة

في ليلة من ليالي الشتاء القاسية وصلت قريتي متأخراً، وقد ابتلت هدومي، وما كدت أصل البيت حتى نزعتها وارتديت ملابسي القروية، ولما لم أجد في البيت ناراً - وكان البرد قد مسَّني – توجهت نحو الساحة أو المضافة كما يسميها البعض ..
دخلت الساحة وإذ بالنار في الموقد تشتعل، والناس حولها في دفء يتسامرون – ذاك شيخ يشرب قهوته، وآخر ينفث الدخان من غليونه، وثالث يهمس في أذن صاحبه، وشباب قد أسندت أكتافهم بعضها إلى بعض، وهم بين جد وهزل، وصبية قد انزووا ناحية يتسامرون فيما بينهم تارة ، ويصغون لغيرهم أخرى، ويثبون بين حين وآخر لخدمة يسيرة يقتضيها المجلس..

طرحت السلام، وتوجهت نحو مكان أفسح لي بين شيخين هما أكبر من في المجلس سناً. وما ان استويت في مجلسي، حتى انهالت علي التحيات – كما هي العادة – من كل جانب.. فاضطررت أن أرد عليها – كما هي العادة أيضاً – واحدة واحدة.
واتفق أن اتجه الحديث بعد ان استقر المجلس بأهله نحو محاسن الساحة، فمنهم من قال: أنها ملجأ للغريب، ومنهم من قال: أنها أنس للقريب ، ومنهم من قال: أنها حصن للخائف، ومنهم من قال: إنها دار للقضاء، وتعددت الأقوال وتشعب الحديث ، وكاد أن يختلط المجلس سامعوه بمحدثيه، لولا أن انبرى للكلام كهل خفيف الظل، فسألهم الصلاة على النبي ، فدوى المكان بمختلف الصلوات مدة قصيرة، ساد بعدها سكون، قطعه ذلك الكهل بقوله : " كل ما قلتموه يا قوم صحيح.. وإنما أهم من ذلك كله أن الساحة في رأيي مكان للتربية.
أثار انتباهي تصريح الكهل بصورة خاصة وما كان مني إلا أن سألته : " وماذا تقصد يا أخ؟ .. أتعني أن للساحة مكانة المدرسة.. ؟ "
قال مندفعاً: " نعم يجتاز الشخص في القرية دور الطفولة، فيرتبط في كل أدوار حياته من صبا، وكهولة، وشيخوخة، ارتباطاً متيناً بالساحة، وفي هذه الأدوار يتأثر خلقه وعقله بما في تلك الساحة من مؤثرات. ألا تذكرون محاولة الصبيان أن يقلدوا الأكبر سنا في كل مكرمة يأتونها؟ ثم ألا تذكرون سخط الشيوخ ،وسخرية الشباب عندما تبدر من الواحد منا هفوة ، فيرتبك إلى حين حتى يزول أثرها؟ وليس في انتقاد المجلس رحمة، وليس فيه انقطاع ما دام المرء مربوطاً بالساحة من صباه حتى الممات "..

وهنا تصدى أحد الشباب قائلاً: لولا الساحة لكانت الحياة في القرية فوضى.. أتهيب المجلس وانتقاداته، وأحكامه ، فأسلك قدر ما استطيع سلوكاً يبعد عني على الأقل سخط من حولي في هذا المكان.
قال هذا وقد جال بنظره فيمن حوله، وكأنه خشي أن يكون ما قاله معرضاً للاستخفاف أو قلة المبالاة به... فعاد الكهل وجلس على ركبتيه قائلاً:

" لقد صدق الأخ فيما قال" . ثم اندفع يتكلم هذه المرة بحماسة فقال: " للساحة علينا فضل لا يحصيه حساب فأوضاعنا الخلقية وعاداتنا الاجتماعية لم تتخذ شكلها الثابت الذي نعرفه إلا بمطرقة الساحة، فنحن نحب الصراحة مثلاً؛ لأن الناس في المجالس يكرهون المواربين، ونجل الخشونة؛ لأنهم يحتقرون المنعمين، ونستعظم الاستقامة ؛ لأنهم يستصغرون المعوجين، ونقدس الصلاح ؛ لأنهم يستقذرون المفسدين" ..
وهناك تنحنح الشيخ فاتجهت إليه الأنظار، وأرهفت إليه الاسماع، إذ كان المعروف عنه أصالة الرأي.. قال الشيخ- وهو يمر بيده على ذقنه والناس إليه منصتون-: " أذكر مما حدثنا به شيوخ الجيل الماضي، قالوا: لحقنا من قبلنا وهم يطلقون على من لا يشترك في الساحة طفلاً؛ ولو بلغ سن الشيخوخة" .
فقاطعه أحد الحاضرين سائلاً: " أتريد أن تفهمنا يا عم أن الساحة في رأيك تقلب الطفل رجلاً؟ " ..
فقال الشيخ مؤكداً: " ذلك ما قصدت إليه من إيراد هذا القول، ألا ترى الطفل في بيته موضع رعاية أهله يرهقهم بطلباته، ويريد من الكل أن يخدمه، حتى يأتي الساحة فيكلف بأن يوقر الكبير، ويخدم المجموع قدر جهده ،
والمجموع بدوره يرعاه فلا يغمطه ولا يبخسه حقه..ألا تذكرون أن أول كلمة ننهى بها الصبي ساعة ترداده على الساحة حينما تبدر منه بادرة قد يتحملها أهل بيته ويستقبلها المجلس بأن يقال له : " عيب، صرت رجلاً.. " فبمجرد اشتراك المرء بالساحة يحس بأن عليه واجبات نحو المجموع، كما كان له سابقاً حقوق على أهله وهو في بيته.
ويكفي أن تقوى فيه الرغبة في أن يقوم بقسطه من الخدمة في الحياة الاجتماعية القروية المشتركة؛ إذ يكون كل همه أن يشعر بأهليته لثناء إخوانه عليه.
فانبرى ذلك الكهل، وكأنه عز عليه أن لا يعقب كلام الشيخ بما جال في خاطره، فقال موجهاً الكلام للجميع: " أذكر يا قوم أني سمعت بعض العقلاء يقولون في أي بيت ربيت؟ ويضيفون أيضاً وفي أي ساحة نشأت؟
ساد المجلس سكون فانبرى طفل وأخذ يعد القهوة للحاضرين، فشربت فنجاني وانصرفت، وقد دهشت من رأي الشيخ ورأي الكهل أيضاً في قيمة الساحة التهذيبية.فقد كانت آراؤهما وليدة الفطرة ، وقد تجود الفطرة أحياناً بما تعجز عنه عقول الباحثين ..

5) ما أجودهم في النصائح:

" يا فلاح انهض ... يا فلاح تناظف .. يا فلاح تعلم ... إغْنَ .. "
يلوك بعض المصلحين مثل هذه النصائح ما استطاعوا، والفلاح يسمع، ويضع في الخرج، ويستمر في عمله.
ليست مشكلته نقصاً في النصيحة، بقدر ما هي فقدان اليد المخلصة التي ترعاه.. لقد تقادم العهد على مهنته فأعطاها طعماً ألفته الأجيال أباً عن جد، وتقادم العهد على النصائح له فأرخصها ، وأنقص من قدرها، فما عاداته إلا وليدة أزمان متوالية تعاقبت عليه، وبيئة معينة اكتنفته، وأمام تلك العادات تقف النصائح الفجة مكسوفة حين تحاول تغييرها.
الفلاح أدرى بمشكلته. وهو كما يقول عن نفسه : " عيني بصيرة ويدي قصيرة " ، هو يعلم حق العلم أن عيش هذه الأمة من يده وأن مال الحكومة ينتزع من ماله.

وهو يعلم أيضاً أن أولاد الأكثرية وبناتها أحق بمال الخزينة العامة من غيرهم. لو ينال الفلاح ما يثقل عليه كيفية التصرف به، لاحتاج وقتئذ للنصائح ليكيف عيشه حسب ما ينال.. ولكنه يرى الحالة بالعكس، " عليه الغرم، ولغيره الغنم"..

رأيت قروياً عصر يوم من الأيام راجعاً إلى بلده، وقد رمى على كتفه كيسه الفارغ بعد أن باع ما فيه من خضار، رأيته يقلب في يديه بضعة دريهمات يعدها تارة، ويقبض عليها أخرى، ويحاسب نفسه ويهمس، فبماذا يفكر ؟ .. وماذا يقول؟ ..

رحم الله الشاعر حين قال:

يا بائع الفجل بالمليم واحدة

كم للعيال وكم للمجلس البلدي؟

6) من روائع الأمثال القروية

- من عدم عدوه عدم صاحبه
- امش على الحق يحتار عدوك فيك.
- الحق وصاحبه اثنين.
- الحق وجه ديب.
- دار الظالمين خراب.
- الدولة وسطها جنة وأطرافها نار.
- عشمتني بالحلق خرقت أنا ذاني.
- عنزة ولو طارت.
- عند الصلايب تحمر الوجوه.
- الضيف رحمة.
- اطعن واسكت، واطعم واسكت، والعلم يجنبه الورادات .
- اللي يريدك ريده، ومن طلب الجفا زيده.
- الشمس ما بتتغطى باليد.
- عز نفسك تجدها.
- لاحق رفيقك ولا تعدمه.
- من عد زلات الرفيق جفاه.
- نفس الرجال يحي الرجال.
- بياع العقل فرش ولا استفتح.
- الخير بالخير، والبادي أكرم، والشر بالشر، وبالبادي أظلم.
- لا تجري ورا الهامل أحسن لا تعلمه المراجل.
- الجنة بلا ناس ما بتنداس.
- يا مسترخص اللحم عند المرق تندم.

- النار ولا المعيار.
- الموت مر والشراد فضيحة.
- ناعم الرجال يأكل خشنها.
- حاميها حراميها.
- شق البحر شق منشار، ولا امش على الشط حافي .
- قالوا للضفدع زغرد قال شرقان.
- ما بتعرف خيري، تتجرب غيري.
- هين فلسك ولا تهين نفسك.
- البلا ولا انتظاره.
- حسبت سياج الدار يحمي من العدا

وما اسياج الدار إلا صحابها

7) كلب حارس وديك منبه

تتضاءل قيمة بعض الحيوانات في النهار، وترتفع تلك القيمة في الليل؛ لاعتبارات تفرضها يقظة القرية ورقادها.
فقد يصيح الديك صيحاته المتقطعة المتعددة في وضح النهار، ولكنها تذوب في صوت اليقظة ، فلا يلتفت إليها ولا يؤبه بها، وينبح الكلب في القرية نباحه المتواصل أو المتقطع، فيمتزج صوته بالأصوات الأخرى، وتتلاشى جميعها في تلك اليقظة.
ولكن عندما يقترب المساء، وتعود القرية تحتضن ما انتشر منها عند الصباح من إنسان ودواب، ويتكاثف سواد الليل شيئاً فشيئاً، وتتدرج القرية في هدوئها حتى تخالها تغط في إغفاءة من النوم – عند ذلك والليل ساجٍ والقرية هادئة نائمة، تصور نفسك وأنت تسمع نباح الكلب يقطع سكون الليل في أوله، لعله يوحي للمسافر ليلاً بأنسه تزيل بعض الوحشة من رهبة سكون الليل، بل لعله يرشد ضالاً نحو حي آهل بالسكان. أو قد يثير اليقظة والانتباه في أهل الحي نفسه عند قدومه لذاك المكان. ولكن كل هذه الانطباعات تتضاءل بجانب ذاك الانطباع القوي عندما يعلو نباح الكلب بصوت متصل يقترب من الزئير، فيكون في حالة الدفاع لاقتراب خطر يتوقعه..عندئذ تشاركه كلاب القرية في النباح، وبالعزم نفسه حسب قربها من مصدر النباح الرئيسي، فتخال كلب النهار تحول إلى سبع الليل، بل تخال القرية، وقد نام أهلها، تحولت إلى مسبعة .. أيها الكلب.. عفواً ! أيها السبع ... نعمت المسؤولية التي سمت بك فحولتك سبعاً، تؤنس والليل موحش، وتحرس والناس نيام...
ويسير الليل حتى منتصفه، فيعلو في القرية صوت آخر ، تعلو قيمته في الليل بقدر ما تتضاءل في النهار، ألا وهو صوت الديك.. ومن منا لم يسمع صيحة الديك الأولى تقطع سكون الليل في النصف الأخير منه؟
ينفض الديك جناحيه ويصفق بهما رافعاً عنقه، مطلقاً في الفضاء صيحات متوالية، مشاركاً زملاءه الديكة في صيحاتها التي تنبعث في القرية فترة قصيرة، ثم يعود الديك والديكة إلى الغفوة.

وتتكرر تلك الصيحات في فترات منظمة يكاد يضبط الإنسان الوقت حسبها، وكأن هذه الفترات من يقظة الديكة وصياحها، تتخللها إغفاءات منتظمة، كأنها فترات تمهيدية إلى اليقظة الأخيرة التي تتمثل في صياح الديكة عند مطلع الفجر، فتكون هذه هي النداء الأخير ؛لاستيقاظ القرية.
أيها الديك الموقظ.. نعمت تلك الصيحات الممهدة لصيحتك الأخيرة ؛ لتبعث حياة القرية عند الفجر من جديد.
أيتها القرية... هنيئاً لك : كلبك الحارس الأمين، وديكك المنبه اليقظ...

8) من وحي شباط

لشهر شباط ظواهر تستلفت النظر، فهو من دون الشهور الشمسية ناقص العدد فكل أربع سنوات يصل بعد جهاد إلى أن يصير 29 يوماً.. وما يكاد يسجل ذاك الرقم القياسي حتى يهبط ويعود كالمعتاد. وما لي ولتعليلات علماء الفلك لذلك، فكثيراً ما ارتبكت وتبلبلت مواعيد عينت في (30) من ذلك الشهر.
ويظهر أن هذا الشهر عند عقلاء القطط أطول بكثير مما هو متعارف عليه عند علماء الفلك، وان اتفقوا جميعاً على بدئه. فلطالما كانت كثرة مواء القطط ؛ نذيراً بقرب حلول شباط الكريم، وعندما يعلو المواء ويستحيل إلى زغردة، وتتقطع الزعردة إلى مفاصل واضحة تكاد تقترب في بعض الأحايين من النطق، يكون هذا هو أول الشهر وفق التقويم " القططي " الذي يوافق التقويم " الشمسي " . والقط أدرى ..
ويظهر أن النباتات الشتوية تشارك علماء الفلك، وعقلاء القطط في هذا التقويم. فالفجل واللفت والكرنب وغيرها من أمثال تلك النباتات تبدأ : الشنبطة " في أول هذا الشهر مذ ينمو فيها " طلق " يدعى عادة بلغة الزراعة " شنبوط " يتفرع إلى فروع عدة تزهر بعدئذ في الربيع ، ومن ثم تتحول تلك الأزهار إلى بذور.
ومن ظواهر هذا الشهر أيضاً أنه " خباط " فلا انتظام في أحواله الجوية فقد تسطع شمسه، ويصفو جوه ، ويدفأ نهاره ، وما تكاد تقول " ما شاء الله " حتى يعصف ريحه، وتتلبد غيومه، ويشتد برده، بدون سابق إنذار، فيلمع البرق ، ويقصف الرعد، وتهطل الأمطار، وتسيل الأودية، ولا يدوم هذا أيضاً ، فتهز كتفيك غير مستغرب وتقول : " هذا شباط ما عليه رباط ".
وتنسج الخرافات حوله تلك القصة المشهورة من أن بدوية استقلت مطر شباط في عام ما فقالت: " مر شباط الخباط ما بل لا نعجة ولا شعواط" فسمعها شباط ، وكان في الخامس والعشرين من عمره ، ولحظ قصر المدة الباقية له ، فالتجأ لأخيه آذار، فاستقرض منه أربعة أيام أضافها إلى الثلاثة الباقية من عمره ، فصب فيها كل ما قدر عليه من مطر وبرد وثلج، فأروى الأرض ، وطفحت السيول حتى جرفت ما عند البدوية من حلال ، وراحت هذه الأيام في الفصول السنوية تدعى بالمستقرضات.
أيها الشهر.. لقد صدق من سماك: " شباط الخباط اللي ما عليه رباط ".

9) ريان يا فجل

" ريان يا فجل" مثل سائر يستشهد به للدلالة على طريقة خاصة بأسلوب معين، ولهذا المثل قصة تشير إلى مضمونه ، يروى- والله أعلم- أن أحد المحاربين المتقاعدين، وقد بلغ من الكبر عتياً، خرج من الجيش وهو خالي الوفاض فراح يعرض نفسه في سوق الأعمال، فيصطدم بالحقيقة المرة، إذ يجد نفسه لا يصلح للخدمة في شاق الأعمال؛ لشعوره بالعجز، ولطبعه العسكري الصلب الجاف، ثم راح يبحث في ميدان التجارة ،

عسى أن يجد فيه مجالاً للحصول على قوته وما تقتضيه الحياة من مطالب وواجبات فاستهوته تجارة الخضروات، وقدر رآها أيسر منالاً، وأسهل ممارسة ،وأقل عناء ، وأوفر ربحاً، ولعله بدافع لا شعوري نفر من أصناف الخضروات كلها واختار (الفجل) للتجارة به.
انزوى صاحبنا في ركن من السوق، يزاحم غيره من باعة الصنف نفسه، وهم كثر وكل منهم في بيعه على طريقته ، فكان المار في تلك المنطقة يلفت سمعه مختلف النداءات تتلون وفق الحاجة، وحسب الزبائن من المشترين، ولكنها في مجموعها لا تخلو من إغراء وتشويق إلا صوت صاحبنا المحارب، فقد كان صوته على وتيرة واحدة (ناشزاً) بين تلك الأصوات، لا تسويق فيه ،ولا إغراء ، بل مجرد عرض بطريقة عسكرية لم تكن تنفر الزبائن فحسب ، بل تجفل المارة، وترعب أحياناً الأطفال حين يهدر صوته في السوق " بورده فجل، بورده فجل...".
ولم يكن يؤلم صاحبنا هذا تجنب الزبائن له وابتعاد المارة عنه، بقدر ما كان يؤلمه صوت جار مزاحم له يعرض على الناس فجلاً بطريقة كلها طلاوة وتشويق وإغراء، حين ينطلق صوته العذب وهو يحمل الفجلة باليمنى ويشير إلى المارة باليسرى ويتثني وفق نغماته، وهو يقول : " ريان يا فجل، خجلان يا فجل.. يا حلاوتك يا فجل.. يا سكر يا فجل.. " فكانت هذه الحالة تهيج صاحبنا العسكري غيظاً فيخبط الأرض برجله اليمنى، وتعبث انامله بشاربه، ويهز رأسه الضخم مستنكراً ، وهو يقول: " استغفر الله ، استغفر الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.. فجل للسلطة، لكن بشر أمره غريب، (بورده) فجل ما ياخد، لكن تنميق، غناء، تخلّع، يشترون..."

10) طرائف ومقتطفات

مقابلات ومقارنات
بين
الشعر البدوي والشعر الفصيح

توارد الخواطر في الشعر في حد ذاته ظاهرة تستلفت النظر ولاسيما إذا كان الشعر منبعثاً عن بيئات متباينة، وفي أزمان مختلفة .

وأجمل وقعاً من ذلك في النفس، ما يلمسه المطلع على الأدب العربي من تجانس ومقابلة بين أبيات من الشعر رددها أمراء الشعر الفصيح، وأبيات أخرى جرت على ألسنة البدو ورددتها البادية والقرى، ولا تزال..، يقول الشاعر:

وإذا الهموم تكاثرت   دخّن عليها تنجلي
ويقول البدوي :

ما دام قهوة وتتن   كل الأمور اتهون

وهل غير البدوي من يتذوق (التتن) والقهوة تذوقاً يخرج في بعض الأحيان عن حد الاعتدال؟ أليس البدوي هو القائل:

والله لولا التتن ولولاه لولاه
والله لولا التتن وين أنا أروحي
أعبي السبيل [1] من التتن واملاه
وأكويه أنا بالنار يكوي جروحي

ويقول أمير الشعراء المرحوم شوقي بك على لسان قيس بن الملوح في رواية مجنون ليلى يصف ذهول المجنون من أثر الحمى الغزلية، إن صح هذا التعبير.

إذا الناس شطر البيت ولوا وجوههم   تلمست ركني بيتها في صلاتيا

ويضمن بيت المجنون الأصلي :

أصلي فما أدري إذا ما ذكرتها
اثنتين صليت الضحى أم ثمانيا

ويقول المرحوم نمر العدوان، وهو ان لم يكن أمير الشعر البدوي ، فهو أمير العدوان، يقول عن نفسه يصف ذهوله على فقد وضحاء زوجته، مخاطباً قريبه حمود:
فرشت أنا يا احمود على الشرق صليت
مدري على القبلة ولّا شمالي
مدري أنا اتيممت ولّا توظيت
ولّا قريت الحمد ولّا بدالي

---

[1]- غليون.

ويتهيأ لي أن الذي لا يميز بين الوضوء والتيمم أغرق ذهولاً ممن " يخربط " في القراءة وعدد الركعات، كان الله بالعون ...
ويقول المرحوم شوقي بك على لسان قيس مجنون ليلى :

ولقد أقول لمن يبشرني بالخلد ما أنا داخل وحدي
لو أن ليلى بالنعيم معي أو في الجحيم تساويا عندي

وينفس أمير العدوان، باختصارته البدوية المألوفة التي تنم عن قناعة وحسرة في وقت واحد:
ما ريد بالجنة اقصور وبساتين إلا أنا وظحة بظل السوافي

وأبو فراس الحمداني يذل دمعه عندما يضويه الليل خوفاً من شماتة الحساد ، وحرصاً على كبرياء رجولته إذ يقول في قصيدته التي مطلعها " أراك عصي الدمع " :

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى وأذللت دمعاً من خلائقه الكبر

وبقدر ما يخشى نمر العدوان شماتة الأعداء والحساد، يعاني من كبت دمعه ونواحه على وضحاء، فيقول مخاطباً ابنه عقاب:
أنا لو دنوا الحساد يا عقاب مني لا خفي دنيني في دنين الذباب

(.. وهل يسمع دنين الذباب... ؟)
وإن غابت الحساد يا عقاب عني لحن تالي الليل حنّ الربــاب

يحن في آخر الليل حيث يطمئن بأن كل الناس نيام .. وشيخ الشعراء وأميرهم المتنبي يقول بيته المشهور الذي يجري مجرى الأمثال :

إن السلاح جميع الناس تحمله
ليس كل ذوات المخلب السبع

فتخال في شعر ابن هذا البدوي روعة تهز النفس، وتكاد تكون أقوى حين يقول :

يا حيف نقل السيف مع بعض الأولاد
ألّن يكون أمضى من السيف راعيه

والبدوي بطبعه ينفر ممن يتظاهر بما ليس فيه، وقد تصل هذه النفرة على حد الاحتقار والاستخفاف؛ ولذا تعددت أقواله في هذا المعنى، فهو القائل : "ولا كل من لبس العمامة يزينها"
وهو القائل أيضاً : "ولا كل من نتقل القنا يطعن العدا"

وهو القائل أيضاً :

ما كل من مسك الربابات شاعر
ولا كل من ركب الفرس خيال

وهو في هذا يجاري الشاعر في قوله :

ما كل من قال القصيد بشاعر
هيهات يطعن كل من حمل القنا

ولكن البدوي يجيز لنفسه المغالاة في الفخر متى تأكد من ميزة فيه، أو في قومه، ما أجمل قول ابن الرشيد أحد أمراء نجد في (القرن التاسع عشر) يفخر بشجاعة قومه وقوة بأسهم :

من شافنا في الحلم ياعي من النوم
ومن شافنا في العلم [2] بطنه إيهله [3]

ويضاهي البدوي في هذا المضمار فصحاء الشعراء، يقول عمرو بن كلثوم في معلقته المشهورة :

إذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا

ولكن الأمير خلف الإذن أحد أمراء عشيرة الرولة المشهورة يفوق في مغالاته في الفخر حين يقول :

صغيرنا لنّه على الدّيد [4] رضاع
سِنّه شطير ويقصم العظم نابه

ويصل شاعرنا المرقش الأكبر الذروة في الفخر الحماسي حين يقول :

---

[2]- اليقظة.

[3]- تنخض أحشاؤه هلعاً.

[4]- الثدي.

إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا
ولو نسام بها في الأمن أغلينا

فتجاريه في القول عجوز بدوية من قبيلة (الشرارات) الأردنية تباهي بالفخر نفسه حين تقول :

الروح عند آركابنا عاد تنباع
وانبيعها بيعة رخيص الجلابة [5]

وترق نفس البدوي حين تهتز مشاعرها بالحب فتجاري الشاعر الحضري بشارة الخوري في صوره الشعرية عندما يقول :

قتل الورد نفسه حسداً منـــــك وألقى دماه في وجنتيك

وتجاري شاعراً آخر يقول وقد رأى حسناء تحاول قطف ورد:

فقلت وهل جنى ذنباً؟ أجابت :
تعدى سارقاً ألوان خدي
ويقول بدوينا الظريف :

سرق حَمار الخد وردٌ وتفاح
قمت قطفته قبل يسرق تواليه

ومهما يفسر القارئ هذا البيت فإنه يزيد من روعته فإن شرح القطف بأنه واقع على الوردوالتفاح(اللذين سرقا حمار الخد) فهو رائع، وإن شرح القطف بأنه واقع على الخد قبل أن يسرق بواقي احمراره فهو أروع، ويصوغ الأفوه الأودي سنة من سنن علم الاجتماع في نظم رائع .

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهالهم سادوا
تبقى الأمور بأهل الرأي ما صلحت
فإن تولت فب الأشرار تنقاد

ولكن شاعرنا البدوي وهو واقعي التفكير لا يغمط العقال فضلهم، ولا يغبن الجهال حقهم، فيصوغ سنته في نظمه المختصر حين يقول :

---

[5]- الجلابة: جمع جلب وهي القطعان المرسلة للبيع.

قوم بلا جهال ضاعت احقوقها

وربع بلا عقال راحوا قطايع

11)رمضان

الليل ساج، وقد لف القرية الهاجعة النائمة . كل شيء ساكن، كل شيء نائم، حتى الدور تخالها نائمة..
صيحة الديك الأولى تقطع سكون الليل في الهزيع الأخير منه، وتتبعها الصيحات المتزايدة ويبدأ اللغط ينبعث عميقاً من داخل بعض الدور..قرقعة الأبواب تعلو، ويعقبها فتح الشبابيك ، وارتفاع الأصوات للخارج، شيخ أجش الصوت ينبه ابنه: " انهض يا علي .. انهض! نبه أهل الدار! الفجر قرب" .. زادت الحركة وانبعثت الأنوار في بعض البيوت، واستيقظ قسم من أهل القرية قبل أن ينطلق صوت المسبح من على سطح المسجد، وما ان علا صوته بتسابيح السحور حتى خلت القرية تعود للحياة كاملة في هذا الوقت .
من الليل.. هذه امرأة توقد النار، وتلك مسرعة إلى التنور تحمل العجين.. وهذا مشغول في إيقاظ أخيه، وقد ثقل نومه واستعسر إيقاظه.. وذاك يسأل عن الطعام.. وهذا طفل أقام الدنيا وأقعدها؛ لأن أهله لم يوقظوه وأخذ على باله أن لا يلحق بالصائمين، أو على الأقل بالمتسحرين، وعمرت الأزقة بالمارة، وهكذا انشغلت القرية في هذه الفترة التي يهيء الإنسان فيها لنفسه ما يعينه على صيام نهاره المقبل.
وما هي إلا مدة حتى تخف الحركة، ويخف الصوت، وتتدرج الحالة نحو الهدوء ، وتعود القرية بأجمعها في شبه إغفاء، إلا من بعض المهرولين للمسجد ممن يحرصون على
وصل سحورهم بصلاة الصبح ....

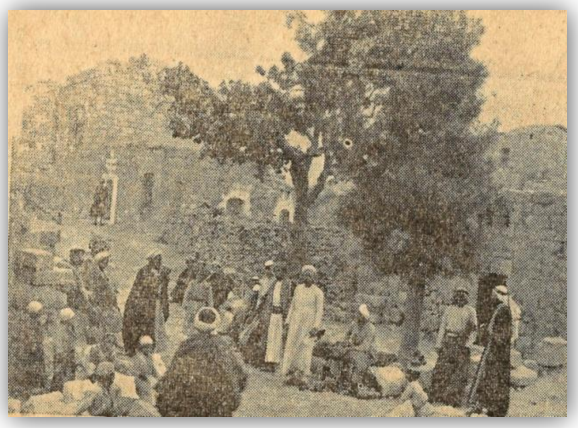

وأسفرت القرية في الصباح، وقد تملكها شعور تقي هادئ خاشع، يالهيبة رمضان! تلمس هذا الشعور في كل ما تراه ..
يقضي الناس صدر النهار في أعمالهم وشؤون حياتهم اليومية، وقد رفقوا بأنفسهم، في العمل وفي السير، وفي المجالس، لا تسمع لغواً في حديث ، ولا تلمس جفاء في الطبع.. فسبحان من حول الإنسان إلى ناسك ورع .. غمر قلبه حب الله والإنسان والفضيلة، فصفت نفسه، وعادت تقية طاهرة.. فأمعن في التسبيح ، واستغرق في ذكر الله.
هكذا تصفو النفوس، وتتآلف القلوب، فتجتمع على التقوى .. كيف
لا ولرمضان في القرية مكانة تسامت في أذهان أهلها حتى جسموا صورته فجعلوه كائناً حياً يرقبون ميلاده قبل أسابيع من مقدمه، ويستعدون لاستقباله استعداد العائلة الملهوفة؛ لمولود جديد، حتى إذا انطلقت البشرى

بمقدمه السعيد، انطلقت الملائكة تزين الخير للناس، وانحبست الشياطين، فباب السماء مفتوح، وباب الغواية مغلق.

" اللهم إني صائم " .. كلمة طالما تسمعها تتردد على ألسنة القوم، فقد يخرج أحدهم لأمر ما عن هدوئه وما ان يستفزه الغضب حتى يذكر رمضان فجأة ،فيندم ويعاوده هدوءه، ويستغفر ثم يقول: " اللهم إني صائم ".. إن جمحت نفس أحدهم برغابتها، كبتها، واستغفر الله، وتذكر أنه صائم، فقد تجلت شخصية رمضان، فغمر القلب شعور التقى، وعاد نقياً طاهراً، وملك على الحواس أمرها ،فأعف القلب واللسان والسمع والبصر ..

وتتدرج صورة رمضان الحية في مخيلتهم فينمو رمضان نمو الكائن الحي إذا اكتملت شخصيته في منتصف الشهر، وملك على القرية حياتها، تخيلوه يضعف ويهزل كلما انقضى نهار منه، حتى إذا لم يبق إلا الأسبوع الأخير منه تخيلوه في دور النزاع، " فيستوحشون " لقرب فراقه فيرثونه في البيوت ومن على السطوح .. ويذكرون موتاهم فيحيون ذكراهم.. ويوزعون الصدقات عن أرواحهم، ويكثرون من القراءة والتسبيح و الاستغفار، فهو شهر التوبة والمغفرة .. ويستعرضون ماضيهم القريب، فيتلافون ما فاتهم من واجبات نحو الله والمجتمع وأنفسهم، ويجددون العزم على المضي بقلوب جديدة ، وأرواح نقية طاهرة..

يقضون صدر النهار في أعمالهم وقد رفقوا بأنفسهم. ثم يقبلون عند الظهيرة، يستمعون إلى القصص، أو الوعظ، أو ينزوون في المسجد يقرؤون القرآن ، ويقضون ما فاتهم من الصلوات حتى إذا ما أذنت الشمس بالرحيل رأيت النسوة في نشاط غريب، وقد هيأن الطعام، وما هي إلا مدة حتى يهرع الناس للمضيف يحملون طعامهم ويمدون موائدهم جنباً لجنب .. ويتكاثر الناس، وتتعدد الموائد .. ثم ما تلبث الحلقات أن تلتئم، وتتجلى روح الإخاء والمحبة عندما تصبح الموائد المتعددة مائدة واحدة مشاعاً للجميع ..

قبيل الغروب ما أجملها وأحرجها من فترة !.. المؤذن يذرع سطح المسجد بتؤدة جيئة وذهاباً، ينظر نحو ساعته مرة، ويلتفت للغرب أخرى .. ويستغفر الله بين هذي وتلك. والأطفال الصغار قد تزاحموا على مقربة منه، وتمركزت أبصارهم نحوه يتابعون مشيته ويرقبون حركاته ... والناس حول الموائد جالسين هذا ينظر في الأطباق وآخر يتطلع في السقف وثالث يتابع سير العقارب في ساعته، وباقي الجمهرة تكثر من الاستغفار.

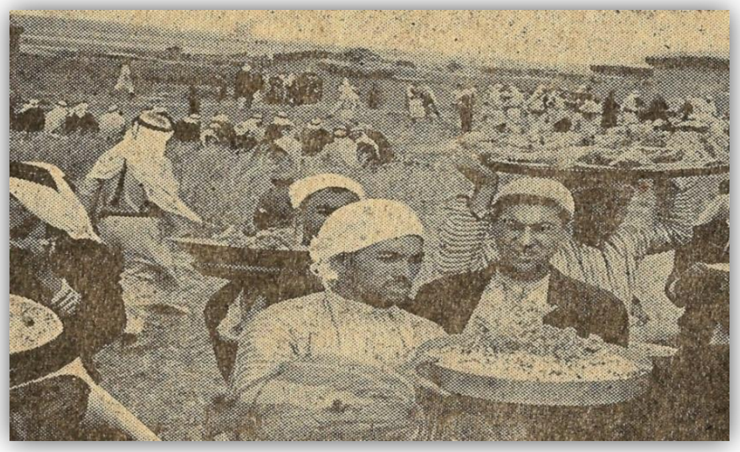

توقف المؤذن ورفع يديه نحو أذنيه، فاشرأب الأطفال بأعناقهم إليه، وسكنت القرية سكوناً كاملاً قطعه بعض الاستغفارات تنبعث متفرقة من هنا وهناك. وانطلق صوت المؤذن " الله أكبر ! الله أكبر ! " فتراكض الأطفال متدافعين في الأزقة وانتشروا نحو دورهم، وقد ملأوا البلدة صياحاً: " افطروا يا صايمين عالرغيف نايمين .. افطروا يا صايمين، عالرغيف نايمين " .. وعثر أصغرهم وقام من فوره ينفض الغبار عن ثوبه، ويلهث لاحقاً بزملائه وهو يتلعثم : " اصيموا يا فاطرين ! ... "

فاستقبلته أمه على عتبة البيت تحمل اللقمة في يد وتطوق بالأخرى أبنها وهي تقول : " اللهم إليك صمت ،وعلى رزقك أفطرت ،وعلى صيام غد نويت " ...

12)أفطر سهواً

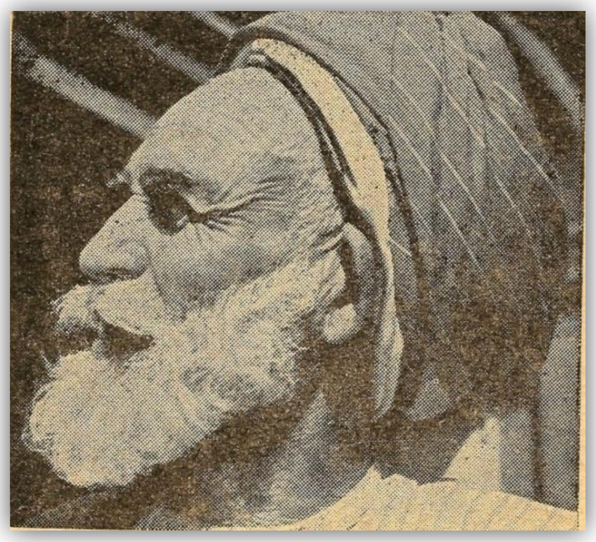

كان العم سعيد فرحاً جذلان حين ما ثبتت رؤية الهلال، وانطلقت البشرى بحلول رمضان المبارك، فقد جلس وزوجته يتسامران ويتشاوران فيما يلزم من تهيئة خاصة لهذا الشهر الكريم، وقال فيما قال لزوجته بعد أن تنحنح وعدل عمته وأدار بيده على ذقنه، وقد افتر ثغره عن ابتسامة ساذجة: " ولا تنسي يا زينب ان تكثري من الشاي عند السحور .. "

والعم سعيد، وان كان في العقد السابع من عمره إلا أنه، مع كونه شيخاً، به سذاجة الطفل، طيب القلب، إلى حد السذاجة والغفلة، لا هم له في الحياة إلا ممارسة عمله اليومي على قدر ما يساعده عزمه والاستغراق في العبادة وعمل الخير.

ولا يحلو له من ملذات الحياة شيء بقدر ما يحلو له شرب الشاي، وخصوصاً في الصباح، وكثيراً ما كان يلح على الشيخ في المسجد أن يصف له شاي الجنة، فيصرفه الشيخ قائلاً: " فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ... وإن الشاي فيها خير من شاي الدنيا .. فيقول العم سعيد بسذاجته المعهودة: " اللهم لا تحرمنا الجنة وشايها .... " وبلغ من حبه للشاي أنه لا ينتعش لشربه إلا إذا كان هو قد أعده؛ ولذا تراه قد جمع في بيته أباريق وقوارير اختلفت أشكالها وتنوعت ألوانها. واقتنى من أصناف الشاي من أخضر وأسود وأحمر .. ما يثير دهشة زواره ..استيقظ العم سعيد مع من استيقظ عند السحور، وتناول ما تيسير من الطعام، ثم تفرغ لإعداد شايه ،وأخذ ينعم بشربه، يرشفه بسرعة ؛ ليجرع ما أمكنه قبل أن يدركه طلوع الفجر. ثم تناول عصاه وقد ترك الأدوات مكانها وهرول نحو المسجد ليصلي الصبح، وعاد بعدها للبيت يتمتم بمختلف الأدعية والاستغفارات، وتمطى في فراشه، فراح في إغفاءة طويلة استيقظ بعدها، فرأى الشمس وقد علت في كبد السماء... فأخذ يذرع البيت جيئة وإياباً كعادته في الصباح، وعينه تلتفت هنا وهناك كأنها تبحث عن شيء، وأخيراً جلس القرفصاء، وقد اهتدى إلى علبة كبريت، فأشعل النار بهدوئه المعتاد، وأخذ يعد الشاي كعادته ، وقد ذهل عن رمضان ونسي أنه صائم، واستغرق يدندن ذاهلاً، وقد حلت له دندنته مع صوت " وابور " الكاز، يرقب غليان الماء فترة، ويعبث بالقوارير أخرى، حين أتم ما يريد، ثم جلس عند النافذة وهو يقول: "ما شاء الله " .. وأخذ يكيل لنفسه الكوب تلو الآخر كعادته في كل صباح ..ودخلت زينب على زوجها وهو على هذه الحالة، فانتفضت وفغرت فاها، ورجعت خطوة إلى الوراء ، وصاحت في العم سعيد : " مالك يا شيخ .. أجننت ..؟ " فقام العم سعيد والكوب في يده، ولم يصح بعد قائلاً: " مالك أنت ؟ .. يا فتاح يا عليم !.. " وما كادت الزوجة أن تقول: " ورمضان .. ! ؟ والصيام .. ! " حتى أفلت الشيخ الكوب من يده فتناثرت أجزاؤه وأخذ يلعن الشيطان والشاي نفسه، ولم تسلم الزوجة أيضاً .. فخطا يتعثر بالأكواب والأباريق ، وخرج من البيت يلعن الشيطان ويستغفر، والزوجة تشيعه من الباب بنظراتها حتى توارى، فعادت تلملم ما تناثر، وتتوقف بين حين وآخر وقد غلبها الضحك فاستحال إلى قهقهة طويلة !...

وهبط العم سعيد من المسجد وهو في حالته المضطربة، وارتمى عند الشيخ يستفتي ويروي له القصة وهو يلهث، ويلعن إبليس ويستغفر، والشيخ يصغي ويحاول كبت ضحكه ، ولكنه أخيراً ربت على كتف العم سعيد قائلاً: " قال، عليه الصلاة والسلام :

" من أكل أو شرب ناسياً فليتم صومه، فإنما أطعمه الله وأسقاه ".

"اللهم أطعمنا وأطعم منا ! "

13)يوم الحصاد

أخذت القرية تتثاءب من نومها، فقد تزايد صياح الديكة، وانبعثت نداءات متفرقة هادئة، هذا رجل ينادي زوجته، وتلك أم توقظ ابنها برفق، وبدأت الأبواب تدق وتفتح، وعلا في سماء القرية صوت المؤذن : " الله أكبر ! الله أكبر ! ".

وما هي إلا بضع دقائق حتى دبت الحياة بكاملها، فكنت ترى شيوخاً وكهولاً وشباناً يهرولون نحو المسجد مسرعين يلبون نداء الله.

وتسمع في الأحواش أصوات الصبية، وقد تعالت نداءاتهم، وانطلقت الدواب وانتشرت في الطرقات، وشغلت النساء في حمل ما تحتاجه العائلة من زاد نهار طويل، فكنت ترى هذي تضع اللبن في " المحلبة " وتلك تضع الخبز في " الجراب " وأخرى تضع الطفل في " الحذل " وكأن القرية تهيء نفسها لرحيل مؤقت .. كيف لا وهذا موسم الحصاد .. موسم الأمل، ومعقد الرجاء؟

انطلقت هذه الأفواج، وانتشرت زرافات ووحدانا متجهة نحو الحقول، ولم يتخلف في القرية إلا من أقعدته الظروف؛ لعجز أو لشغل هام ..

قلت لنفسي، وقد توارى الناس عن القرية واختفوا: " ولم لا ألحق بهم واليوم يوم راحتي ؟ فلأقض بعضاً منه بالاستئناس معهم ".

تناولت فطوري على عجل، وتدرجت خارج القرية على مهل، وما هي إلا أن أخذت الشمس ترتفع في السماء.

وواصلت السير حتى وصلت الحقول، وإذا بها قد غمرتها أفواج من الناس والدواب، وقد انتشر الرجال والنسوة مكبين على زرعهم، والمناجل تلوح بأيديهم.

منظر يثير في النفس الغبطة والإعجاب، إكباب متواصل وأيد متحركة، هكذا يعملون تحت وهج الشمس، فلا يضجرون، ويلفح الهجير وجوههم فلا يتأففون، بل تلمس شعور المرح والنشاط يتجلى في تلك الأغاني والأهازيج التي يرددونها.

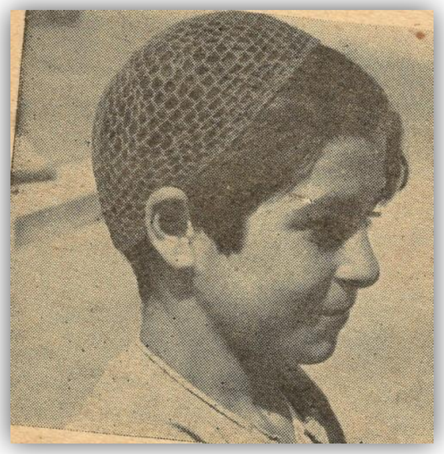

هذا غلام يردد بأعلى صوته، وقد أخذت الحماسة منه كل مأخذ وطفح على وجهه البشر والعرق معاً :

أنا خيّال المنجل
والمنجل خيال الزرع

فيتبعه إخوانه حصداً وإنشاداً :

منجلي يا بو الخراخش
منجلي في الزرع طافش

ما أحلى النشيد مع العمل ! .. اسمع ما يردده فوج آخر من الشباب:

سبل الحصايد ذهب
وململم الزينات

إن في تردادهم رمزاً حياً للحصاد، فهو في نظرهم موسم زراعي يجنون فيه ما بذروه (سبل الحصايد ذهب). وموسم عاطفي فيه الفرصة للتنفيس بتلميح غزلي محتشم (وململم الزينات)، وهل غير الإنشاد على مسمع من العذارى من سبيل:

يا حِلو لنّي في زينك ما طلعت البر
ولا حصدت الحصايد في نهار الحر

يرد عليه زميله:

يا ريتني غيمة وارد الشمس عنكو
ولّا مطر صيف وارد الربيع الكو

صليل المناجل يستمر، وقصل الزرع يتواصل، والإنشاد ينبعث من هنا وهناك، بلا انقطاع:

يا حلو دربك سند والرِّجل ثقلانه
واقعد تسليك يا بو عيون نعسانه

يرد الآخر:

ماشي على جالكو والرِّجل ثقلانه
والقلب يطلب رفق والعين خجلانه

اسمع لهذا الفوج من الرجال وقد بدا في طليعتهم رجل بين الشباب والكهولة ينشد:

وادي الحصى رقّ سيلك ولظعون تقطع
بلاد غيرنا جفتنا وامحل المزرع

فيرد عليه من خلفه هازجين:

هذي بلدنا أو بنفلح فراضيها
وان عجعج الكحل بالبارود نحميها

وهكذا يتحول الحقل الهادئ إلى نشاط وحركة بعد أن دبت فيه الحياة.

أخذت طريقي بين الأفواج وتوجهت نحو شيخ جلس ناحية يستظل تحت عريشة أقامها من البوص. اقتربت من الشيخ فحييته : صح بدنك يا عم ".

- بدنك يسلمك ! تفضل ، وافسح في مجلسه ، فجلست بجانبه ودار الحديث:
- كيف الزرع هذا العام يا عم ؟
- فاضت الخيرات والحمد لله. ولا تخلو بعض الأماكن من محل، ولكنها سنة خير، والخير فيما اختاره الله ..

قال هذا، وقد لمع في عينيه بريق ، وطفا على وجهه بشر خلته محا التجاعيد الصارمة في وجهه من أثر السنين، ثم تناول طرف ردائه ومسح به التراب والعرق من على وجهه قائلاً: " غبار وحر هذا النهار " .

- غبار الفخر هذا يا عم.

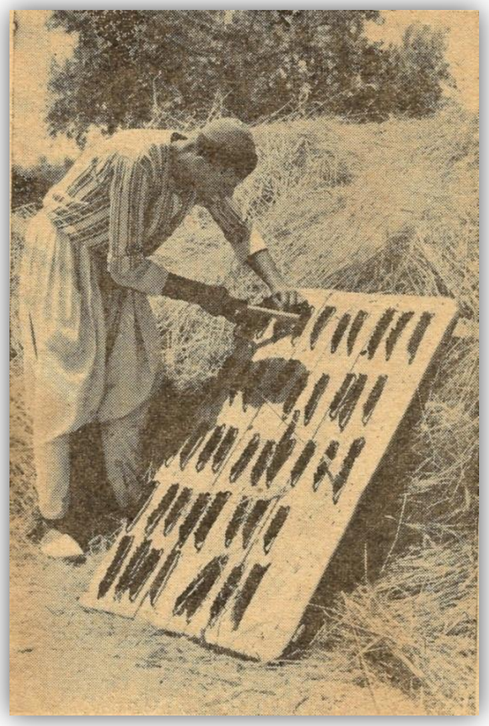

فالتفت الشيخ إلي بسرعة وبدا على وجهه الحزم، وقال بلهجة هادئة رزينة:

- هو تراب الفخر وعرق العافية، ألا ترى الحاصدين (وأشار بيده نحو الأسراب) مكبين على زرعهم يقضون طيلة النهار تحت وهج الشمس فلا يتأففون ، وتغبر وجوههم فلا يبالون ! .. " ثم بعد هذا لا يهمهم ان تمتع بثمرة تعبهم جاحد أو شاكر " ، فهم أدرى الناس بأن عيش هذه الأمة من أيديهم، ودعاؤهم دائماً : " يا رب أطعمنا وأطعم منا ".

يا لها من حكمة قالها الشيخ مسترسلاً بلا عناء ولا تكلف، هكذا تجود الفطرة بالقول الصائب والرأي السليم ..

واستمر الشيخ يقول ، وقد لحظ استئناسي وإعجابي بحديثه:

- هذا العمل يا أخ لا يعرف المواربة، ازرع تحصد، فلا واسطة ولا تزلف ولا نفاق، والطبيعة لا ترحم يا أخ، فالأرض تطلب حرثاً لا رجاء، وشقوق المحاريث تطلب شخص يعد النورج (لوح الدراس) لدرس الزرع
- بذاراً ، لا حيلة وخداعاً، والبذور تطلب ماءً لا سراباً، والحصاد يتطلب كل هذا المجهود الماثل أمام عينك، فكأن قوى الطبيعة وقوى القرية النازحة بأجمعها تقوم بهذا العمل متعاونة على أساس شريف نزيه؛ لتحصل على هذه الثمرة بعونه تعالى. وأية ثمرة ؟ هي الثمرة المقدسة التي يشاركنا الناس على اختلاف طبقاتهم بالنعيم بها. وكأن الله أراد لأبينا آدم أن يقدر خير لذة ممزوجة بالتعب، فرماه بهذه المهنة، لقد تقادم العهد على مهنتنا يا أخ، فأعطاها طعماً ألفته الأجيال أباً عن جد، وتقادم العهد على النصائح لنا فأرخصها وأنقص من قدرها ..عندها قاطعت الشيخ مستغربا ،
- وأي النصائح تقصد يا عم ؟

- لو تدري يا بني، أأسميها نصائح أم تهكمات أم مغريات أم تضليلات؟ تارة يصبح الفلاح معياراً وأخرى فخراً؛ ينافق الناس حينا فيضعونه سيداً، وطوراً يهملونه فيعدونه خادماً، والفلاح أدرى بنفسه، هو كما يقول عن نفسه: " أنا خادم الأرض وسيد الحقل، وخادم الناس، وسيد نفسي".

صوروا مهنتنا بمختلف الشقاء، وتمسح بنا كثير من المتظاهرين بالشفقة، هل ترى في هذه الظاهرة الماثلة أمامك في الحقول ما يدعو للشفقة؟ قل لي بربك أصدقني.

- لا أرى يا عم إلا النخوة والنشاط والعمل المتواصل ينسجم مع الإنشاد والمرح والغبطة بما تجنيه الأيدي، وما تنتظره من نتائج مجهودها.

قلت هذا، وقد هممت بالانصراف، فوقف الشيخ مودعاً بعد أن ألح علي بالبقاء للغداء ، فاعتذرت له وودعته، وبنفسي أن يطول الحديث معه.

عدت طريقي بين الأفواج وحديث الشيح يجول في خاطري، ولم يقطعه إلا انبعاث الأناشيد من بين الزرع. الشيخ في جده والشباب في عملهم ومرحهم.

اسمع هذا يقول:

يا بنت ردي غنمك عن اشكارتنا

مدري رماك الهوى ولا محبتنا

يا حلو يا بو الذوايب لك زمان غايب

حرمت طرد الهوى من بعدكو تايب

اسمع هذا الكهل يسير بين الزرع متثاقلاً يلتفت نحو فوج من الشباب يطارحهم الإنشاد عن قرب، والظاهر أنهم تحدوه:

يا ما طردنا الهوى واحنا اصباوية

واليوم عقال ما فينا فلاتيّه

فتصدى له شاب يرد عليه:

يا ناس طرد الهوى بده فضاوة بال

وانتو طردتو الهوى عالفارغ البطال

وابتعدت قليلاً، وما زالت الأغاني تنبعث متفرقة يخفت صوتها كلما ازددت بعداً حتى لم أعد أسمعها، مذ توارت الحقول.

سرت في الطريق راجعاً وحدي، والشيخ وحديثه وصورة الحقل ماثلة في ذهني، ولكن هناك صوتاً خلته لم ينقطع ورافقني طول الطريق وأنا أخاله يتردد بنبرة عاطفية قوية : " اللهم أطعمنا وأطعم منا ". وصوت الشباب يرن :

" سبل الحصايد ذهب وململم الزينات ".